تصحيح الأصول

سعيد الأفغاني

من كلام الجاحظ فى نعت استاذه ابراهيم بن سيّار النظـــام قولـــه :

«كان ابراهيم مأمون اللسان ، قليل الزلل والزيغ فى باب الصدق والكذب . . وانما كان عيبه الـــذى لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر السابق الذى لا يوثق بمثله ، فلو كان بدل تصحيحـــه القياس التمس تصحيح الاصل الذى قاس عليه كـــان امره على الخلاص . ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه وينسى ان بدء امره كان ظنا (1) .

ونحن إذا وضعنا (الشواهد غير المحررة) مكان كلمة (الظن) الواردة فى نعت الجاحظ لاستاذه صدق الحكم كل الصدق على عدد غير قليل مـــن القواعـــد النحوية . ولا يرد على هذا أن اكثر الروايات الضعيفة والمحرفة التى بنيت عليها هذه القواعد رواها كوفيون . وذلك لان التباهى بكثرة الرواية وندرة المرويّ كان كما يقولون بدعة العصر فى المئة الثانية فما بعدها ، وكلما اغرب الراوي كان ادل على سعة محفوظه ، وكان كثير منهم يسجل كل ما يسمع مهما تكن اللغة ضعيفة او رديئة او لغة قوم خالطوا اجانب ففسدت سلائقهم فلم يعتدّ بكلامهم ، فكثرت الوجوه فى المسألة الواحدة من غير تمييز بين ما عليه اكثر العرب المحتج بهم وما انفرد به بعضهم ولم تقتصر القواعد المستنبطة من هذه الشواهد على الكوفيين ، بل تسربت الى كتب غيرهم حتى شاعت (مدرستها) الشبه الرسمية واصبحنا فى حاجة الى دراسة علمية لهذه الشواهد تستتبع حذف كل قاعدة لا مؤيد لها الا الشاهد المصنوع او المحرّف او النادر .

والمنهج السليم للقواعد ان تبنى على الاكثر الأشيع من الفصيح ، ومع أن الخليل بن احمد رحمه الله وضع بما أوتي من ذهن رياضى منظم خطة قريبة التناول ، ان الذين اتوا من بعده انحرفوا كثيرا عن منهجه ، وحشروا

(*) القى البحث فى الجلسة السادسة لمؤتمر الدورة الاربعين لمجمع اللغة العربية .

(1) يتابع الجاحظ صفة استاذه قائلا : فاذا اتقن ذلك وايقن جزم عليه وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر فى صحة معناه ، ولكنه كان لا يقول (سمعت) ولا (رأيت) ، وكان كلامه اذا خرج مخـــرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع أنه انما حكى ذلك من سماع قـــد امتحنـــه او عـــن معاينـــة بهرتـــه ـــ الحيـــوان 2 ـــ 83 .

فى بحوثهم ما قرب وما بعد ، ما صح وما لم يصح ، ارادة المكاثرة والمفاخرة فى العلم ·

قال رجل للخليل : « اخبرنى عما وضعت مما سميت عربية : أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ » فقال : « لا » : فقال : « كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ » فقال : « احمل على الاكثر واسمى ما خالفنى لغات » ·

وعلى تصور هذه الخطة شيئا ما كان الخير فى اتباعها وتعاهدها بالاحكام مع الزمن ، فمنهاج قريب يتبع بأمانة واصلاح خير من سير على غير منهاج ، وهذا ما لم يكن — مع الاسف — لسببين على الاقل ·

1 — الاول انهم لم يدرسوا الرواة واحوالهم ومن منهم الثقة الضابط ، ومن الوضّاع والمخلط دراسة كافية ، فلا نعرف عن طبقات رواة اللغة بقدر ما عرفنا عن طبقات المحدثين ، ولاحظى فن الرواية اللغوية ببعض ما حظى به فن رواية الحديث ، ومع أن بعضهم حاول تقليد المحدثين فى الجرح والتعديل فكان ينص فى ترجمة الخليل وأبى عمرو بن العلاء مثلا على أمانتهما وينص فى ترجمة قطرب بما يشعر بكذبه ، ويشير الى تزيد — فى زعمه — عند الاصمعى ان صنيعهم اشبه بمحاكاة ابتدائية لا علمية فيها ·

2 — والثانى أنهم لم يحققوا كثيرا من النصوص التى بنوا عليها ، لا سندا ولا متنا ، أما السند فكثيرا ما تجد الشاهد فى كتبهم منسوبا الى غير قائله او الى مجهول ، مكتفين بـ (قال الشاعر) ، وأما المتن فقد تجده مرويا على غير الصحيح ويبنون قاعدتهم على موضع الخطأ منه · وكان عليهم أن يتقصوا الروايات المختلفة فى مظانها ، ويحققوها متحرين صحيحها من زائفها ، واذا يستطيعون الاطمئنان الى ما يبنون عليها من قواعد (1) ·

وحسبى أن اذكر مثالا لا يغيب عن علمكم ويكون سبيلا الى استحضار امثاله ، ولم اخصه بالذكر الا لانه كان أول ما لفت نظرى بعنف منذ خمس وعشرين سنة(2) وأنا اقوم بتدريس كتاب « مغنى اللبيب » فى الجامعة السورية بدمشق :

مما تناقله مؤلفون فى النحو عصرا بعد عصر ، زعم بأن من شأن « أنْ » الناصبة للمضارع أن تجزمه أيضا : ومن شأنها أن تزاد بعد « كى » . . حتى وجد ابن مالك فى المئة السابعة (— 672 هـ) من الضرورة أن يقول فى كتابه الموجز (التسهيل) : ولا يجزم بها خلافا لبعض الكوفيين « ويتبع ابن مالك فى هذا ولده المشهور بابن المصنف · ثم يجىء فى المئة الثامنة أبو حيان فيشرح كتاب (التسهيل) هذا ويعقب على عبارة ابن مالك الآنفة بنقل غريب جدا هو قول الرؤاسى الكوفى (— نحو 190 هـ) :

« فصحاء العرب ينصبون بـ (أن) واخواتها الفعل ، ودونهم قوم يرفعون بها ، ودونهم قوم يجزمون بها » ·

ثم يدلى برأيه المشروط : (اذا كان قد حكى الجزم بها الكوفيون ، ومن البصريين اللحيانى وأبو عبيدة ، كان الاصح جواز ذلك لكنه قليل (3) · فانتهى الى مخالفة ابن مالك صاحب التسهيل الذى تصدى لشرحه · واترك بيان شكى بل نفيى القاطع لصحة قول الرؤاسيّ الآن ·

3 — ثم يأتى ابن هشام (— 761 هـ) فيذكر فى احكام (أنْ) الناصبة للمضارع أن بعض الكوفيين وأبا عبيدة يزعمون أن بعض العرب يجزم بها المضارع « ونقله اللحيانى عن بعض بنى صباح من ضبة (4) » وانشدوا عليه قول امرىء القيس :

---

(1) ص 72 من كتابى فى اصول النحو فما بعد — الطبعة الثالثة ·
(2) انظر مقدمة المصدر السابق ·
(3) شرح ابيات مغنى اللبيب لعبد القادر البغدادى 1 / 131 — 132 طبعة دمشق 1393 هـ 1973م ·
(4) مغنى اللبيب ص 27 (طبعة دار الفكر فى بيروت سنة 1969) والرواية فى الديوان :
(اذا ما ركبنا) · هذا و (صباح) بضم الصاد وتخفيف الباء ، وما ذكره الدمامينى فى شرحه لمغنى اللبيب من فتح الصاد وتشديد الباء وتبعه عليه سائر الشراح فليس بموجود فى اسماء البطون والقبائل · انظر شرح ابيات مغنى اللبيب للبغدادى 1 — 130 طبعة دمشق 1393 هـ ·

اذا مـــا غدونـــا قـــال ولـــدان اهلنـــا
تعـــالوا الى أن يأتنـــا الصيـــد نحطب

وقـــول جميـــل بثينـــة :

احـــاذر أن تعلـــمّ بهـــا فتـــردّهـــــا
فتتركهـــا ثِقـــلاً علـــيّ كمـــا هيـــــا

وعلق ابن هشام عى بيت جميل بقوله : « وفى هذا نظر ، لان عطف المنصوب عليه يدل على انه ممكن للضرورة لا للجزم » (1) · وكنا نحب مـــن ابن هشام رحمه الله غير هذا ، لكن اهتمام القوم بالنحو الصناعى وتخريج الروايات اغفلهم عن الأحق بالاهتـــمام وهـــو تصحيح الشاهد قبل تخريجه او البناء عليه ·

4 ــ وبعد نحو من مئتى سنـــة الـــف السيوطى شرحه لشـواهد (مغنى اللبيب) فلم يعجبه تخريـــج ابن هشام لهذا البيت بالضرورة الشعرية وغاص غائصا ثم طلع علينا وفى يده تخريج غريب انجده بـــه علـــم القراءات ، فقال بعد ملاحظته ان تجاور الميم والبـــاء فى البيت يشبه ما ورد فى قراءة لآية فيقول :

« انشده الكوفيون ، واستشهد به المصنف علـــى الجزم بـــ (ان) ، وقد خرج على ان سكونه لاجـــل الادغام الجائز فى الكلام كما قرأ ابو عمرو بن العلاء فى : يحكمُ بينكم « ونحوه . . » وبعد هذا الكلام ختم السيوطى بما كان يجب ان يبدأ به وهـــو قوله : « ثم رايت البيت فى ديوان جميل وفيـــه تغيير (1) . . :

الا طـــال كتمـــانى بثينـــة حـــاجـــة
مـــن الحـــاج ما تدرى بثينة مـــا هيا
اخـــاف اذا ابنـــاتهـــا ان تضيعهـــــا
فتتـــركهـــا ثِقـــلاً علـــيّ كمـــا هيـــــا

ونلاحظ ان حكايته عن ابن هشام غير دقيقة : فلم يستشهد ابن هشام بهذا البيت ، بل نقل انشاد غيره ، ونفى فى تعليقه ان يكون فى البيت جزم ، بـــل هو إسكـــان للضرورة ·

5 ــ وبعد وفاة السيوطى بنحو من مئتى سنة ايضا الف عبد القادر البغدادى (1030 ــ 1093 هـ) شرحا لابيات مغنى اللبيب ايضا فلم يزد على ان نقل كلام ابى حيان الذى مر بك من شرحه للتسهيل ·

اقول : اما شاهدهم الاول على زعم الجزم بـــ (ان) فقول امرىء القيس فى روايتهم :

اذا مـــا غدونـــا قـــال ولـــدان اهلنـــا
تعـــالوا الى ان يأتنـــا الصيـــد نحطب

فقد قال السيوطى فى شرح شواهده : (اورده المصنف مستشهـــدا (2) به على ان (ان) قـــد تجـــزم المضارع ، وقد انكر ذلك الفارسى وقال : « الرواية : (الى ان يأتيَ) » ، وكذا اورده صاحب (منتهى الطلب) · وكان بحسب السيوطى هذا فهو كاف بالغ ، لكنه عقب عليه بسرده الرواية الضعيفة والتكلف غير الموفق فى تخريجهـــا قـــال :

« واورده ابن الانبارى فى شرح المفضليات بلفظ (الى ما ياتنا الصيد) وقال : يجوز ان تجعل (تعالوا) مكتفية ، وتجعل (ما) شرطا والفعل مجزوما بهـــا (ونحطب) جوابها (3) وفى هذا السرد خـــروج عـــلى الطريقة المرضية فى التاليف · اذ فى اثبـــات الروايـــة الصحيحة مندوحة عن ختم الكلام بالرواية الخطأ ثـــم تخريجها حتى يتوهم غير المتمكن قوتها ، فان كان هذا قد يقبل ــ على تردد ــ عند بعض الجمّاعين فهو مردود عند المؤلفين المصنفين ·

ولقد كان عبد القادر البغدادى الذى اتى بعـــد السيوطى بمئتى سنة اكثر توفيقا واسدّ نهجا ، فقـــد عزا هذه الرواية الضعيفة الى صاحبها وذكر انكـــار الفارسى لها بالنص والعلة ، وسند القراءة السليمـــة للبيت معزوة الى الثقـــة الخبير قال :

وقال ابو على الفارسى فى « المسائل البصرية » : انشـــد الفـــراء هـــذا البيت :

اذا ما خرجنـــا قـــال ولـــدان اهلنـــا
تعـــالوا الى ان يأتنـــا الصيـــد نحطب

---

(1) شرح شواهد المغنى للسيوطى ص 36 ــ المطبعة البهية · والآية من سورة النساء 4 ــ 141 ·
(2) عرفت قبل اسطر ان المصنف لم يستشهد به ·
(3) شرح شواهد المغنى للسيوطى ص 35 ·

وانشده ابو بكر عن الاصمعي احسب :

اذا مـا غدونـا قـال ولدان اهلنـا

تعـالوا الى ان يأتـي الصيد نحطب

وانشاد الفراء خطأ فاحش لانه جزم بـ (أن) انتهـى (1) ·

اما شأن (أنْ) الثانى الذى زعمه بعضهم فهو زيادتها بعد زميلتها (كي) الناصبة للمضارع مثلهـا ، وجرهم الى هذا ، بيت متهافت مجهول الصانع ، وبيت آخر محرّف ، موضع احتجاجهم منه هو موضع التحريف نفسه ، فالاول :

اردت لكيمـا ان تطيـر بقـربتـى

فتتـركهـا شَنّـا ببيـداء بلقـع

والثـانى قـول جميـل :

فقالت : اكـل النـاس اصبحت مانحا

لسانك كيمـا ان تَغـرَّ وتخـدعـا

وحاروا فى : اى الاداتين تعمل ؟ (أن) أم (كى) فاختلفوا ، فاستنجدوا صناعتهم فانجدت كلا بما عودته، وهاكم عرض ابن هشام نفسه لاصل القضية · ثـم لخلافهم فى الشاهدين الآنفين :

قرر ابن هشام ان من معانى (كى) : « ان تكون بمنزلة (أن) المصدرية معنى وعملا (2) وهذا حـق لا غبار عليه ، ولكنه قيد الحكم بنحو قوله تعالى : « لكيلا تأسو » (3) فكأنه يريد ان يشير الى ان بعضهم جعلهـا تعليليةبمنزلة لام التعليل والنصب بعدها بـ (أن) مقدرة وبعضهم جعلها مصدرية وحرف التعليل محذوف جوازا ، وهو ما تؤيده النصوص والقياس ، ثم تابع كلامه قائلا : « ويؤيده صحة حلول (أن) محلها ، ولانها لو كانت حرف تعليل لم يدخل عليها حرف تعليل : ومن ذلك : جئتك كى تكرمنى ، وقوله تعالى : « كَيلا يكون دولة » (4) اذا قدرت اللام قبلها ، فان لم تقـدر فهى تعليلية جارة ، ويجب حينئذ اضمار (أن) بعدها ، ومثله فى الاحتمالين قوله :

اردت لكيمـا أن تطير بقربتى . .

فـ (كى) اما تعليلية مؤكدة للام ، واما مصدرية مؤكدة بـ (أن) ، ولا تظهر (أن) بعـد (كى) الا فى الضرورة كقولـه :

فقالت اكـل النـاس اصبحت مانحـا

لسانك كيمـا أن تغـر وتخـدعـا

وعن الاخفش : « أن (كى) جارة دائما ، وان النصب بعدها بـ (أن) ظاهرة او مضمرة ، ويرده نحو « لكيلا تأسوا » فان زعم أن (كى) تأكيد للام كقوله :

ولا للمـا بهم ابـدا دواء

رد بأن الفصيح المقيس لا يخرَّج على الشاذ » اهـ والمستعـان الله ·

وقد أُتي السابقون رحمهم الله فى ترددهم فى (كى) بين المصدرية والتعليل من قلة توقفهم عنـد النصوص الصحيحة ، بل من تسويتهم بين الصحيح الفصيح ، والمتهافت المحرف ، فمال بعضهم الى هذا تارة والى ذاك تارة ، ولو نقدوا النصوص فمازوا صحيحها وطرحوا زائفها لم يبق بين ايديهم الا مصدرية كى ، فاما التعليل السابق الى الذهن كلما ذكرت فمن اللام التى تصاحبها كثيرا وتبقى معناها عليها ولو حذفت لفظا بحيث ساغ التعبير انها مصحوبة بها دائما لفظا او تقديرا · ولقد اغرب الاخفش جدا حين جعلها تعليلية جارة فقـط · وحسبك فى وهْي دفعهم اعتراض مجيء تعليلين متعاقبين على قولهم فى قوله تعالى « لكيلا تأسوا » استنجادهم برواية لبيت محرف (ولا للمابهم) (5) وكلنا يعـرف أن الحرف الذى لا يستقل بالنطق لا يكرر فلا يقال (تتالله)

---

(1) شرح ابيات مغنى اللبيب للبغدادى 1 ــ 129 ·
(2) مغنى اللبيب ص 199 طبعة دار الفكر فى بيروت (1969) ·
(3) سورة الحديـد 57 ــ 23 ·
(4) سورة الحشر 59 ــ 7 ·
(5) كذا يرويه ثعلب من الكوفيين ، ولا صحة لذلك، والبيت لمسلم بن معبد الاسدى وقد اورده صاحب منتهى الطلب والسيـوطى :

فـلا والله لا يلفى لمـا بـى ومـا بهم مـن البلـوى دواء

فلا شاهد اذا لمـا زعمـوا ·

انظر شرح شواهد السيوطى ص 172 ·

ولا (كتبت ببالقلم) لكن كتب النحو تناقلت (ولاللمابهم) وكل هذا التخبط سببه عدم الصبر عند الخطوة الاولى ، فالبيت الاول (اردت لكيما ان تطير بقربتى) مجهول الاصل يجب طرحه منذ البداية ، وبيت جميل محرف وصوابه : .... لسانك هذا كى تغر وتخدعا .

فلا اصل لـ (كيما أن) البتة ، والسيوطى نفسه بعد ان اثبت التحريف واثبت القاعدة المبنية عليه اعترف فقال : ثم رايت البيت فى ديوان جميل بلفظ (لسانك هذا كى تغر وتخدعا) فلا ضرورة فيه ، ونتساءل اليوم : فلم ـ رحمك الله ـ لم تمح التحريف السابق والقاعدة المبنية عليه بعد أن عرفت الحق الصراح ؟

جمع بعضهم علما جما يبهرنا بغزارته ، ولكنه لم يتلبث ليهز المنخل هزاً جادا ، واذا لاستراح من كثير مما عنّى به نفسه وعنّى طلاب العلم من بعده ، من كثير كثير لا طائل تحته ، بل تحته كل الصوارف عن الوصول السريع الى الحق الواضح السهل .

انه لا تعليل ولا تخريج ولا قياس قبل تصحيح الاساس .

وبعد فهذا واحد من امثلة غير قليلة في كتاب واحد هو مغنى اللبيب . يضيق بها وينبه عليها كل من كتب الله له دراسة هذه الكنوز الثمينة وتدريسها بأناة ، فهل من هذا التشتت من خلاص ؟ وهل الى خروج من سبيل ؟ .

نعم انه عند عباقرة النقد فى تراثنا الحضارى : عند علماء الحديث . فقواعدهم فى نقد الحديث وتحقيقه متنا وسندا خير ما وضع نقاد النصوص الى اليوم . واذكر ان كتابا لاستاذ تاريخ فى الجامعة الامريكية فى بيروت (1) حُوِّلَ إليَّ قبل ثلاثين عاما لاكتب عنه . كله من فاتحته الى خاتمته دعوة حارة مدعمة بالحجج تهيب بنقاد التاريخ أن يفيدوا من قواعد المحدثين فى نقد النصوص التاريخية لما فيها من نهج علمى سديد ، وكان عنوان الكتاب نامًّا على الدعوة اذ سماه صاحبه (مصطلح التاريخ) اقتداء بـ (مصطلح الحديث) .

ونحن ـ خَدَمَة هذه اللغة الكريمة ـ احق بهذا الخير ، فلنحاول الاستفادة من قواعد المحدثين فى تحرير نصوصنا اللغوية ، وسيقودنا ذلك الى طرح نتوءات ودمامل وانتفاخات واورام تعيث هنا وهناك فى قواعدنا ، لتصبح ارشق قواما واجمل هندام واقوى احكاما وانسجاما ، واحرى أن تنعشه الملكات المتفتحة ويعرف الذين اطالوا الاستمتاع بتراثنا انه يجلو بعضه بعضا ويكمل بعضه بعضا ويُحكم بعضه بعضا ، وقد بدات فعلا علوم اللغة فى نشأتها تقفو خطوات علوم الحديث فما الذى اوقفها فى نصف الطريق ؟ ولو فعلنا بعض ما فعل المحدثون لعلمهم لم يكن فى كتب نحونا اليوم (اجتماع كى وان) ولا الجزم بـ (أن) ولا امثالها . ولغاب عن انظارنا هذا التشويه فى وجه اللغة .

ليس العلم بكثرة ما تجمع من هنا وهناك ؛ ولكن العلم ان تخرج بحقيقة واضحة صادقة مما جمعت من هنا وهناك . فلا تبنى على اساس واه . ولا (تقعّد) أو تقيس الا على الشاهد الصحيح الاصيل .

ولقد استفرغ علماؤنا . رحمهم الله جهودهم الخيرة . وان ما بقى علينا من جهد طفيف فى نقد النصوص وتنسيق ما بنى عليها . سنقوم به على التمام متى احكمنا الخطة وتحلينا بالصبر والاخلاص . وسنكون حتى فى هذا مؤتمين بهم مفيدين من فضلهم فقد تركوا لنا الكثير الطيب اثابهم الله وجزاهم عن العلم واهله واللغة ومحبيها خير الجزاء .

---

(1) هو الفقيد الدكتور أسد رستم .